

من نحن؟

وماذا أعني حين أقول (أو نقول) عندنا، وعندهم؟

هذا الصباح جاءني أم كريمة تكشف على ابنها التي تقول إنه مصاب بفرط النشاط الحركي، هي قالتها بالإنجليزية hyperactive، الولد عنده 16 سنة، في مدرسة من التي هي بمصاريف كثيرة، الوالد متوفى منذ ست سنوات وترك اثني عشر ابنا وبناتا من ثلاث زوجات، والميراث لم تحل مشاكله بعد، والأم تبدو في حال ميسورة، لكنها تشكو -وهي صادقة- من عسر الحياة جداً، والدها (أكثر من ثمانين عام) يقيم معها ومع ابنها، وبناتها من زوج سابق وهي لم تتزوج بعد وفاة والد الصبي الذي جاءت لتستشيرني بشأنه.

الولد، كان قد مرّ على أطباء زملاء أفاضل قبلي، وذلك بقدر ما تحتاج حالته من جهة، وبقدر قلق الأم عليه من جهة أخرى، وأيضا بقدر قلقها على والدها المسن الذي يعيش معهما وهي ترعاه.

السيدة الفاضلة على قدر ليس قليل من الجمال وتبدو أصغر من سنّها الحقيقي (الذي هو 46) بعشر سنوات على الأقل. جلس الشاب هادئا، لم يتحرك طوال نصف ساعة (تقريبا) ولم يشك من شيء شخصيا، بل أشار إلى أمه التي حكّت آثار "فرط حركته" كما أسمتها، أو عدوانيته وانفجاراته العاصفة، كما وصلني، بالإضافة إلى علامات دالة على الخلف Negativism والتكاسل الدراسي منذ قديم.

نبهتُها -كما أفعل عادة- أن الطب النفسي ليس فيه سحر يريئ الناس بالتمني، ولا هو حل عقد، ولا مجرد عقاقير، وأنها لن تجد غالبا عندي أكثر مما وجدته عند زملائي، وأن كثرة التنقل بين الأطباء لا يفيد، بل أنه يحرم الطبيب الواحد المتابع أن يصحح نفسه من خلال التتبع الممتد، وأنا عادة أكتب مثل هذا الكلام على الوصفة (الروشتة) قبل أن أشير برأيي الخاص، اكتب حرفيا:

"لا أوافق على تغيير الأطباء "هكذا".

كل الزملاء السابقين عندهم العلم وفيهم البركة،
والأقرب منهم أفضل،

يستمر مع أحدهم مشكوراً "أو"...

"بمجرد أن اكتب" "أو" أو أقولها، ينتظر المريض أو أهله شيئاً مختلفاً مني، فأنبهه إلى أن الاختلاف - إن وجد - لن يكون في العقاقير الأحدث أو الأبهظ ثمناً، وإنما في تعليمات حاسمة ومحددة ومُلزمة، نتعاون معاً لتنفيذها بكل الوسائل، لمدة زمنية تسمح بتقييم ما نعمل، ولفترة مناسبة، وعلينا أن نقيس نتائجها أولاً بأول بمحكات الواقع جداً (العمل/الاجاز/الناس/العلاقات/النوم الطبيعي... الخ)

ثم أرفقت للأمر أنها، ومن يهمله الأمر من الأسرة، هم الذين سيتولون تنفيذ ذلك، أو القدر الأكبر من ذلك، وأن الأدوية هي عامل مساعد، مهم جداً، لتنفيذ هذه التعليمات،

وكثيراً ما يحتاج الأمر لكراسة وورقة وقلم نسجل بها ما اتفقنا عليه وتحضرها معها الأسرة أو المريض (أو كليهما) في الاستشارة وكذا وكيتم.

تتضمن التعليمات أشياء عادية، وأشياء غريبة، وأشياء جديدة، ومواعيد للنوم، والزام بالقراءة، وبالحركة وتعليمات أحياناً عن زيادة بعض العبادات، أو إنقاص بعض النوافل وكذا، وكيتم.

وهي تعليمات أكثر منها نصائح،

وقد ننجح أحياناً، ونفشل كثيراً،

ونبدأ من جديد،

وهكذا

اللهم إلا إذا عاد التنقل بين الأطباء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أنزل رجلك يا ولد؟

من بين ما اقترحتة على هذه السيدة الفاضلة - بالإضافة إلى تعاطي أدوية زميلي السابق الذي لم أجد عندي ما هو أحسن منها مرحلياً - أن تستشير بعض المراكز التي تقوم بالتخطيط السلوكي العام، ثم التأهيل لمن هو في هذه السن، وكذا وكيتم، فأخبرتني أنها استشارت أحد هذه المراكز، وأن صاحب المركز أو رئيسه، المسئول عنه، **يستعين بجبر أمريكي جداً**، وأن هذا الخبر أشار عليها وعلى هذا الابن النشط الذي كان يجلس أمامي مسترخياً دون حراك حتى الآن، (بلا نشاط أو فرط نشاط!) أشار عليه، وعليها، الخبر الأمريكي جداً أن تتركه وشأنه، وألا تمنع عنه شيئاً، وأنه حين يكبر ويعرف أن إيذائه لنفسه، وإيذاء جده، لم يعودا عليه بأى طائل سوف يكف عما يفعله (ما زال الولد يتابعنا دون حراك، وكأنه يشاهد مسلسلاً!)،

قلت لها معقباً على توصيات الخبير وأنا أخفى ابتساماً تكاد تقفز إلى وجهي، "عليه نور"، وماذا لم تقبلي النصيحة (على فكرة السيدة الفاضلة الجميلة، شقراء وغير محجبة، وتكلم بين الحين والحين كلمات بالانجليزية، أو الفرنسية) قالت: أقبل ماذا؟ الولد ينجح بالكاد، ثم أنه توقف عن الدراسة مؤخراً وقد سمحت له بالتدخين حسب تعليمات السماح، فَجَزَّ ذلك وراءه أشياء تدخن أيضاً في السجائر، وجُده غادر البيت خوفاً على نفسه،

قلت لها: وهل أبلغت الخبير بذلك؟

قالت: نعم، وأصر على نصيحتته، وعلى المتظلم أن يدبر شؤونه،

لم أصدقها مائة في المائة، ولم أكذبها، لكنني لاحظت أن الشاب قد مال بظهره على الكرسي أكثر، ثم وضع ساقا على ساق، فنهرته مجزم واضح: أن "أَنْزِلْ رجلك يا ولد"، فأنزلها فوراً بأدب لم أتوقعه، فأكملت أن هذا لا يليق أمام رجل في عمر جده مثلي، (كنت قد نسيت أن جده غادر المنزل توكياً لآثار العدوان)،

التدخل في الحرية الشخصية

حاولت أن أقرأ على وجه الشاب أي اعتراض على أمرى المباشر الحاسم هذا، فلم أجد،

تذكرت ما حكته لي مؤخراً ابنة لي تعمل في إنجلترا الآن (منذ أكثر من عشر سنوات) د. يسرية أمين حكّت لي أنها عقبت على لبس مريضة تداوم لبس سراويل الجينز دون غيرها، فنصحتها د. يسرية أن تحاول أن تغير من ملابسها أحياناً، فقدمت شكوى فيها أنها تتدخل في حرمتها الشخصية وكادت تؤاخذ د. يسرية مؤاخذه شديدة على تصرفها،

وأيضاً تذكرت كيف ملكني العجب حين قال لي د. رفيق حاتم (المحاور الوحيد في حوار الجمعة بتاريخ 19-10-2007) ود. أماني الرشيدى زوجته، وهما يعملان في فرنسا أن من الممنوعات منعاً باتاً أن يسأل الطبيب المريض عن دينه أو عن حزبه السياسي، لأن هذا وذاك من الشئون الخاصة جداً، التي لا يصح أن يعرفها الطبيب، وذلك حتى لا يتحيز!! أي والله، وقد سبق أن أشرت وكتبت في يومية 12-1-2008 أن **سياسة النعام** هذه التي تخفى بها ديننا عن بعضنا البعض، لا بد وأن ترحمنا من عمل علاقة جادة وشريفة وعميقة مع بعضنا البعض، فما بالك مع المريض؟

وكيف يكون موقف الطبيب "حايداً بحق" لو كانت معلوماته ناقصة عن عنصرين من أهم العناصر التي تنغرس في مرجعياتنا الثقافية والعقائدية والشخصية شعورياً أو لا شعورياً؟ الدين والموقف السياسي؟

وكلام من هذا كثير كثير

إذن نحن نختلف؟

وهل في هذا كلام؟

نحن نختلف ليس فقط في ممارسة الطب النفسي، وإنما في معاني ومساحات الحرية، وحقوق الإنسان، ونوعية الحياة، وامتدادها، وحدود العلاقات، ودرجة الدفء في التواصل، وحمل المسؤولية عن بعد،

كما أننا نختلف في مدى الالتزام، والكسل في بالعمل، وعدم احترام القانون، وحضور العرف الملزم الأقوى من القانون أحياناً، وفي مساحة وتنوعات الإبداع المتاحة، وكذا وكيت.

وإذا كانت هذه الاختلافات تتزايد باستمرار، وفي نفس الوقت نحن نفشل في التقليد الخرفي لما عندهم باستمرار، فما العمل؟

من نحن؟

وماذا أعني (ونعني) حين أقول عندنا؟ وعندهم؟

* إذا هاجمنا ديمقراطيتهم وجدنا أنفسنا في أحضان الحكم الشمولي وليس على طريق السعي إلى ديمقراطية حقيقية.

* وإذا هاجمنا مؤتمراتهم وجدنا أنفسنا في عزلة متباعدة لا يعرف أحدنا (أو جماعتنا) ماذا يصنع زميله الأبعد (أو جماعة أخرى في أقصى الدنيا) ولا كيف يفكر، وما هي نتائج أجهته، أو فروض افكاره.

* وإذا هاجمنا حقوق الإنسان المكتوبة لتسطحها وبعض سوء الاستعمالات من خلالها، وجدنا أنفسنا لا نتمتع بحقوق الانسان أصلاً: لا المكتوبه ولا الشفهية، ولا حتى حقوق الحيوان.

* وإذا هاجمنا المنهج العلمي التقليدي (في الطب النفسي مثلاً لاستحالة المقارنة فعلاً) وجدنا أنفسنا في حضن الخرافة بكل ظلماتها وعشوائيتها.

* وإذا هاجمنا العقل المنطقي الظاهر بأنه ليس "الكلف في الكل" (كما يفعل العلم المعرفي) وجدنا أنفسنا في غيابة اللاعقل، أو سخر رمحة الانفعالات العشوائية، أو حسن النية، الخائب واللاخطيط.

هل نكف عن النقد والمحاولة؟

طيب، إذن: هل نكف عن الهجوم على كل هذا، ونقول أن "قضا أخف من قضا" ونحس التقليد حذوك البحث بالبحث، وحذوك الديمقراطية بالديمقراطية، وحذوك حقوق الانسان بحقوق الانسان اياها؟

نحن فعلاً نحاول كل ذلك، وإذا بنا نفاجأ أننا:

أولاً: أننا لا نحسن التقليد،

وثانياً: أنهم ليسوا صادقين في الالتزام بما يعلنون من الناحية العملية

كما أننا نكتشف تدريجياً أن التي تحكم العالم هي قوى الثروات الحقيقية، والمافيا السرية، والتربيطات الإعلامية، وغسيل المخ العولمي الجديد والحروب الاستباقية، وما لا ندرى.

مرة أخرى: أوراق قديمة:

رحت أبحث في أوراقى فوجدت أن هذا الإشكال لم يغب عنها (عنى) أبدا سواء في المنشور منها أو المخزون عندي، وجدت عشرات المقالات والفروض تتناول هذه المسألة تحديداً، قلبت في معظمها جميعاً، ووجدت أن بها نفس الحماس الذي أكتب به الآن ولكنها تنتهى بنفس الحيرة التي أنتهى إليها الآن، لكن للأمانة هي ليست حيرة مغلقة بقدر ما هي حيرة دافعة نحو شيء ما.

قيل وكيف ذلك؟

• العالم ملكنا جميعاً فنحن مسئولون عنه جميعاً طول الوقت

• هذا العالم هو نحن كلنا بلا زيادة ولا نقصان.

نحن جميعاً ورثنا تكريم الله لنا

• هي الأمانة التي تحملها جميعاً دون استثناء،

• وهو الوعي الذي امتحننا الله به حين هبنا لنا مسيرة التطور لنصل - كما نتصور- إلى قمته

• فهو مأزقنا جميعاً،

ليس معنى أننا حين نستجير من الرمضاء نجد أتفلسنا وسط النيران وبالعكس. ليس معنى ذلك أن انقراض الجنس البشرى قد أعلن بلا رجعة، أو أنها "نهاية التاريخ" بفوز أحد المتصارعين بالضربة القاضية الفنية، أو الفعلية، أو الذرية، أو الاستباقية، ولا أن المباراة قد أوقفت لعدم تكافؤ القوى.

صدق أو لا تصدق

صدقون أو لا تصدقون أن ربنا سيسألنا -ربما أول ما يسألنا- كلاً منا على حدة عن "ماذا فعل أئُّ منا تحديداً حين بلغه ما نحن فيه؟

حين وقف وحيداً هذا الموقف الصعب جداً جداً؟

ماذا فعل طوال حياته دقيقة بدقيقة؟

ثم إنه سبحانه سوف يسألنا بعد ذلك، وقبل ذلك، عن ما سيسألنا عنه كله.

عوداً على بدء

السؤال الذي عنونت به المقال يقول: هل عندنا بديل؟

أعد ان أقوم بتحديث المقالات والأطروحات التي أشرت إليها سابقا،
أولا: بصفة عامة، وثانيا: فيما يتعلق بالطب النفسي خاصة،

اسمحوا أعود الآن أتساءل:

هل عندنا بديل؟

ومن نحن؟

ومن هم؟

أتوقع أننا لن نجد عندنا البديل الجاهز، وأيضا لا أقبل
أن نرضى بهذه الحلول المطروحة سابقة التجهيز، ومع ذلك فسوف
يحاسبنا الله على ما يلي:

• على جهدنا الحقيقي الذي نبذله لنجد الحل الموجود في
الغيب فعلا، ولكنه موجود منذ الآن.

• سوف يحاسبنا على مدى تناسب الجهد الذي بذلناه ونبذله
مع جهاد الابداع الذي نسعى إليه وبه.

• سوف يحاسبنا على قدرتنا على رفض الرمضاء، والنار
معاً، وماذا فعلنا بعدها.

• سوف يحاسبنا على جدية البحث، بالسعى على أرض الواقع
في طريقنا إلى الكدح إليه، وسط هذه المستحيلات على الناحيتين

• سوف يحاسبنا بدقة متناهيه، كما أمرنا أن نحاسب
أنفسنا ومنذ الآن.

أما كيف؟

فهو القادر العارف لطريقه الحساب

هو العدل نفسه سبحانه وتعالى .

هنا والآن وأبدا .

ملحوظة:

من بين المقالات والأطروحات التي أعدت بالقيام بتحديثها
عُثرت على العناوين التالية التي قد يكون لها دلالة مبدئية
حتى نعود إليها:

بل من هناك نبدأ 7-11-1982

حضارة بديلة كيف؟ ثنائية المعرفة أم خلط الأوراق
1984-1-16

العولة ونوعية الحياة 14-5-1999

هم يحتاجوننا بقدر ما نحتاجهم 1-6-1999

حضارة بديلة! كيف؟ عن المدنية والحضارة؟ 27-11-2000

حضارة بديلة! كيف؟ من يحكم على من؟ وبأى المقاييس؟ 5-12-2000

حضارة بديلة: كيف؟ الاختلاف حقيقة في الجوهر والمظهر 12-2000

حضارة بديلة! كيف؟ ثلاث قيم وثلاثة محكات 20-12-2000

الاختيار الصعب: العلمانية المؤمنة 30-12-2002

الإيمان يشحن الأداة البشرية: للمعرفة والإبداع 27-1-2003

تحذير

أكاد أعرف المخاطر وعاشتتها

أكاد أعرف احتمال وميوعه التوفيق (الخل الوسط، والخل
الشؤونياتي 13-1-2008)

أكاد أعرف خبث التلفيق والاستسهال

أكاد أعرف مخاطر انقراض الدعوة للسلفية، والحكم
الشمولي، وشماته الخرافة

أكاد أعرف أن الصراع لا ينتظر الراضين في الوضع "متأملاً"

أكاد أعرف أنه ليس عندي بديل جاهز

ولكنني أحاول أن أتمسك بموقفى تحسباً لحساب رب العالمين

واحتراماً لمشاركتي هذا الجنس الرائع (المسمى الجنس
البشري) كلاً من: الوعي، والوعي بالوعي، وحمل الأمانة،
ومساحة الحركة، وتنوع الفرص، والقدرة على الإبداع

هل مارست أو أمارس ما يميزني بشراً أم لا ؟

الله أعلم .

ونحن - فرداً فرداً، فجماعة جماعة فكل الناس - نحاول طول الوقت.

هل عندنا (كل هؤلاء بديل)

نعم

لكنه ليس جاهزاً بعد

The Man & Evolution FORUM Web Site

<http://fr.groups.yahoo.com/group/TheManAndEvolutionForum/>

Forum Subscription

TheManAndEvolutionForum-subscribe@yahoogroupes.fr

Mail To Forum Participate

TheManAndEvolution-FORUM@arabpsynet.com

FORUM INVITATION

www.arabpsynet.com/Rakhawy/MaEForumInvitation.pdf